﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ [الحج: 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من اختصاصِه هدايةً إلى اختصاصه فصلًا وحكمًا

لمّا خُتِمَتِ الآية السابقة ببيان إرادة هداية الله تعالى لمن يريد من عبادِه، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾، ناسب ذكر أصنافٍ من النّاس ممَّن بلغتهم هداية الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾؛ لتبيين مَن أراد الله هدايتَهم فكانوا من المهتدين، وتبيينِ من لم يكونوا كذلك.

وأيضًا: فإنَّه لمّا اشتملتِ الآيات السّابقة على بيان أحوال المتردّدين في قبول الإسلام؛ كان ذلك مثارًا لأن يُتَساءَلَ عن أحوال الفرق بعضهم مع بعض في مختلف الأديان، وأنْ يُسأل عن الدّين الحقِّ؛ لأنَّ كلَّ أمةٍ تدَّعي أنَّها على الحقِّ وغيرها على الباطل وتجادلُ في ذلك، فبيَّنت هذه الآية أنَّ الفصل بين أهل الأديان فيما اختصموا فيه يكونُ يومَ القيامة، إذ لم تفدهم الحُجَجُ في الدنيا[1]، فهو تعالى المتولّي هدايةَ مَن يريدُ وإضلال من يشاء، والمُتولّي الفصلَ بين المهتدين وغيرهم من أهل الأديان والفِرَق، فيكون ما تقدَّم بمثابة الدَّليل على اختصاصِه بالفصل والقضاء فيما بينهم؛ لأنه المتولّي للهداية والإضلال جميعًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَادُواْ﴾: أصل (هود) يَدُلُّ عَلَى إرْوادٍ وسُكونٍ، والتَّهْويدُ:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 222.

المَشْيُ الرّويْدُ، ويَقولونَ: هَوَّدَ، إذا نامَ، فَأمّا اليَهودُ فَمِنْ هادَ يَهودُ، إذا تابَ هَوْدًا، وسُمّوا بِهِ؛ لِأنَّهُمْ تابوا عَنْ عِبادَةِ العِجْلِ، وفي القُرْآنِ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 156][1]، وعلى هذا قال بعضُهم: كلمة (يَهود) مأخوذةٌ في الأصل من قولهم: ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾، وكان اسمَ مدح، ثم صارَ بعدَ نسخ شريعتهم لازمًا لهم، وإن لم يكن فيه معنى المدح[2].

2) ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: أصل (صبأ) طلع، يقال: صبَأْتُ على القوم أصْبَأُ صَبْأً وصُبوءًا، إذا طلَعْتُ عليهم، وصبأ نابُ البعير صُبوءًا: طَلَعَ حَدُّهُ، وصبَأتْ ثَنيةُ الغلام: طَلَعَتْ[3] ومنه الصابئ، أي: كأنَّه مَن طلعَ مِن دينه وغيره، وقيل: بل هو من قولهم: صَبا يَصْبو صَبْوًا وصَبْوَةً: إذا نزعَ واشتاق، وفعلَ فِعْلَ الصِّبْيانِ، قال تعالى: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: 33][4]، وقد اختُلف في المراد بالصّابئة، فقيل: هم طائفةٌ من المجوس واليهود، لا تؤكل ذبائحُهم ولا تُنكَحُ نساؤهم، وقيل: هم قومٌ يعبدون الملائكةَ ويصلّون إلى الشمس كلَّ يوم خمسَ صلوات، وقيل: هم قوم يعبدونَ الكواكب[5]، وذهب بعضُ المحقِّقين إلى أنَّهم قومٌ من أهل الكتابِ، عُرفوا بالصّابئة المندائيَّة أتباع يحيى عليه السلام.

3) ﴿وَٱلْمَجُوسَ﴾: (مجس) كَلِمَةٌ لم يُعرف لَها قياسٌ، وهي فارسية، يُقالُ: تَمَجَّسَ الرَّجُلُ، إذا صارَ مِنْهُمْ[6]، وهذه الكلمةُ علَمٌ على طائفةٍ فلا يُقال فيها: إنَّها مُعرَّبة، وقد ورد في الحديث: "فَأبَواهُ يُهَوِّدانِهِ أوْ يُنَصِّرانِهِ، أوْ يُمَجِّسانِهِ"[7]، قال أبو عليّ النحويّ: المجوس واليهود إنّما عُرِّفا على حدِّ يهوديٍّ ويهود، ومجوسيٍّ ومجوس، فجمع على قياس شعيرة وشعير، ثم عُرِّف الجمع بالألف واللام، ولولا ذلك لم يجزْ دخولُ الألف واللام عليهما، لأنَّهما معرفتان، قال: وهما مؤنَّثانِ فجَرَتا في كلامهم مَجرى القبيلتين[8]، والمجوسُ: قومٌ يعبدونَ النار، ويقولون: إنَّ للعالَم أصلين النّورَ والظُّلمةَ[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هود).
(2) الراغب، المفردات: (هود).
(3) الجوهري، الصحاح: (صبا).
(4) الراغب، المفردات: (صبا).
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/ 536.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مجس).
(7) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات: 2/ 94.
(8) الجوهري، الصحاح: (مجس).
(9) صديق خان، فتح البيان: 9/ 25.

4) ﴿يَفْصِلُ﴾: (فصل) كَلِمَةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَمْييزِ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ وإبانَتِهِ عَنْهُ، يُقالُ: فَصَلْتُ الشَّيْءَ فَصْلًا، والفَيْصَلُ: الحاكِمُ[1]، والفَصْلُ: إبانَةُ أحدِ الشّيئين مِنَ الآخَر: حتى يكونَ بينهما فرجةٌ، ومنه قيل: المَفاصِلُ، الواحدُ مَفْصِلٌ، وفَصَلْتُ الشّاةَ: قطعتُ مفاصِلَها، وفَصَلَ القومُ عن مكان كذا، وانْفَصَلوا: فارقوه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ [يوسف: 94]، ويستعمل ذلك في الأقوال والأفعال، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٠﴾ [الدخان: 40]، ويَفْصِلُ بين الناس بالحُكم بينهم، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الحكم الفصل بين المهتدين والضالّين هو لله تعالى وحدَه يومَ القيامة

يُخبر الله تعالى أنَّ الَّذين آمنوا بالله وبرسله جميعًا، واليهودَ المنتسبين إلى موسى ﷺ، وعُبّادَ النجوم والملائكة، والنَّصارى المنتسبينَ إلى عيسى ﷺ، والمجوسَ عُبّادَ النّار، والمشركينَ عبّادَ الأوثان، إنَّ هؤلاء جميعًا سيفصل الله بينهم يوم القيامة، ويقضي بينهم بحكمه الفصل العدْل، فيظهر المُحِقّ من المُبطِل منهم؛ لأنَّه مطَّلعٌ على كلِّ شيء، عالمٌ بأعمال خلقه، وسيُجازيهم على أعمالِهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة الفصل في الآيةِ:

التفصيل بعد الإجمالِ شفاءُ العليل وإرواء الغليل

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ محمولٌ على كونه جوابًا لسؤالٍ[4] مقدَّر عن مصير المهتدينَ والضالّين، ومَن يتولَّى الفصلَ بينهم والقضاءَ فيهم، على طريقة الاستئناف البيانيِّ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فصل).
(2) الراغب، المفردات: (فصل).
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 490.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 23.

فيكونُ بين الآية وما قبلَها (شبهُ كمال اتصال)، كما أنَّ العطف لو وقعَ أوْهَمَ أنَّه معطوفٌ على ما قبله فيكون من جملة ما تقدَّمه وذلك ليس بمراد؛ فالآيةُ جاءت جوابًا عن "حال الفريقين: المهديِّ والضّالِّ، حيثُ أجاب عن ذلك ببيانِ جميعِ الفِرَقِ بما فيها من مؤمنٍ وضالٍّ؛ لأنَّ لهذه السورة أتمَّ نظرٍ إلى يوم الجمع، الَّذي هو مقصودُ السورة الَّتي قبلَها، وهي سورة الأنبياء، فقصد إلى استيعاب الفرق تصويرًا لذلك اليوم بأليق صورة"[1].

غرضُ التَّوكيد:

زيـادةُ الاهتمام بـمـضـمـونِ الخطابِ

سيقَ الإخبار عن فصلِ اللّه ﷻ بينَ جميع الفرق المهديِّ منهم والضالِّ مؤكّدًا بحرف ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لزيادة الاهتمام بالحكم وتقريره وتأكيده في أذهان المخاطبين، وكذلك تأكيده في ضمائر المتشكِّكين منه، وفي هذا التوكيد للحكم إزالةُ للشكِّ الكامنِ في قلوب المتردِّدين عمَّن يتولَّى الفصل والقضاء بين الناس أجمعين، ورسالةُ تطمينٍ للمؤمنين بعدمِ إشغالِ النفس بحساب الضالِّين؛ لأنَّ اللّه هو المتولّي للفصلِ في الخصوماتِ يومَ الدين، وهو العدل القويُّ المتين.

نكتةُ تقديمِ المسند إليه:

التـشـويـق لسـمـاع الـخـبر يـجـلـب الانـتـبـاه والإصـغـاء

قُدِّم المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اهتمامًا به، وتشويقًا لمعرفة الخبرِ، لا سيَّما أنَّ الجملة أتَتِ استئنافًا بيانيًّا للجواب عن سؤالٍ مقدّر، ممّا يزيدُ التَّشويقَ لتتمَّة الخبر.

بلاغةُ مجيءِ المسندِ إليه اسمًا موصولًا:

يُلْحَظ أنَّ المسند إليه فيما يخصُّ المؤمنين واليهود، قد سيق بواسطة الاسم الموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ تنويهًا بشأن المؤمنين، وبيانًا لسبب مدحِهم، الَّذي

(1) البقاعي نظم الدرر: 13/ 23.

يومئ إليه تصديرُ ذكرهم وتقديمُه على مَن سواهم، فإيمانُهم الخالص منافٍ لكلِّ مظاهر الشِّرك وأسبابِه، كما يحملُ التعبيرُ بالموصول إبهامًا وعمومًا، فيشملَ جميعَ المؤمنين والعائدينَ إلى الله تعالى، فتكون قرينةً على أنَّ (اللام) الواقعة في ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ﴾ للاستغراق الكلي.

إبرازُ الوصف الَّذي تضمَّنته جملةُ الصِّلة لكونه مناطَ المدح أوِ الذمِّ

وفي التعبير عن اليهود التائبين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ مدحٌ لهم بالتوبة، فمعنى ﴿هَادُواْ﴾ أي: تابوا وأنابوا، ففيه مدحٌ لهم بهذا الاعتبار؛ ليكون ذلك تأنيسًا لوحشة اليهود من القوارع المذكورة في بعض الآيات الذّامَّة لعُصاتهم، وإنصافًا للصّالحين منهم، وتبشيرًا لصالحي الأمم من اليهود وغيرهم، الَّذين مضوا مثل الَّذين كانوا قبل عيسى ﷺ وامتثلوا لأنبيائهم بالطّاعة والعملِ الصّالح[1].

توجيه التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿هَادُواْ﴾:

الَّذين هادوا يدخل فيهم كلُّ من تهوَّد وإنْ لم يكن من سِبط يهوذا

عبَّر النَّظم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ دون (اليهود)؛ لأنَّ اليهود لمّا تفرَّقوا في البلدان في عهد الرومان التحقَ بهم غيرُهم من فلول بقيَّة الأسباط، ممَّن لم يكونوا من سبط (يهوذا) - الَّذي قيل إنَّهم سُمّوا يهودًا لنسبتهم إليه، فلعلَّ هذا وجهُ اختيار لفظ ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ في الآية دون اليهود؛ وللإشارة إلى أنَّهم الَّذين انتسبوا إلى اليهود ولو لم يكونوا من سبط يهوذا[2]، وهذا توجيهٌ تاريخيٌّ يُذكر في هذا المقام لا لإثباته، بل لمعرفته، وإلّا فإثباته يحتاج إلى تحرير وتحقيق لغوي وتاريخي، ونلمح في التعبير عنهم بالموصول وصلته معنى تسميتهم باليهود، فلم يكن ذلك الاسمُ لأمرٍ نسبيٍّ، فيختصُّ بشعبٍ ونسلٍ معيَّنٍ، وإنما هو وصفٌ لكلِّ مَن تاب ورجع إلى الله تعالى مُؤمنًا بموسى ﷺ، وفي هذا نقضٌ لفكرة (الشعب المختار) القائمة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 531.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 532، 533.

على النَّسَبِ والنَّسْل الواحد، وفي جعل الصِّلة فعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿هَادُواْ﴾ ما يدلُّ على تحقُّق الإيمان باللّه ووقوعِ الرجوع إليه بشكلٍ لا جدال فيه.

بلاغةُ العدولِ عن الاسم الموصول إلى الاسم الظاهر:

دفعُ الالتباسِ قانونٌ قرآنيٌّ في إفهام الخطابِ للنّاس

عدل النَّظم عن الاسم الموصول، كما جاء في حقِّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ إلى الاسم الظّاهر في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ﴾؛ لأنَّه لا يعبَّر بالاسم الموصول إلّا مقرونًا بصلته، والتي يجب أن تكونَ معهودةً عند المخاطب ومعروفةً بحيث يفهمُ المقصودُ بها ويُعرَفُ، ولتدلّ على ذات فعلٍ يصدق على حقيقة المقصود، فلا يُقال في (الصّابئين): الَّذين صبَؤوا، ولا في (النّصارى): الَّذين نصروا، ولا في (المجوس): الَّذين مجسوا، لأنّه يؤدّي إلى اللَّبس، ولربَّما انصرفَ الذّهنُ إلى ملاحظة معنًى اشتقاقيٍّ فيها، إذ تسمية فريق (النصارى) بهذا الاسم لم يكن قائمًا على ملاحظة النُّصرة لعيسى ﷺ، بل مجرّدُ نسبةٍ لاتِّباعهم عيسى ﷺ، وكذلك تسمية فريق (الصابئين) لم يكن لمعنى اشتقاقيّ خاصٍّ بهم، بل لأنَّ الناسَ أطلقوا على هؤلاءِ العبّاد للكواكب والنجوم هذا اللّقبَ الموحي بتركِ عبادة اللّه الواحدِ الأحد، ولو أطلقَ عليهم (الذين صبَؤوا) لكان شاملًا لجميع الفِرَق والنِّحَل؛ إذ ما من فرقةٍ إلا وترى الفرقةَ الأُخرى قد صبأتْ وخرجتْ عن مُعتقدها، وكذلك تسميةُ فريق (المجوس) لم يكن من أجلِ دلالةٍ اشتقاقيّةٍ، بخلافِ (المؤمنين واليهود) الَّذي سُمّوا بهذا الاسمِ للدِّلالة الاشتقاقيَّة الملحوظةِ في الاسمين، وهو وجودُ الإيمان والرّجوع، ولذلك أيضًا عدلَ عن (المشركينَ) إلى ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ لبيان أنَّ تسميتَهم بهذا الاسمِ ملحوظٌ فيه معنًى اشتقاقيٌّ كان سببًا لحظوتهم بهذه التَّسمية.

علَّةُ تقديمِ الصابئين على النصارى:

التَّقديم إمّا لمراعاة الواقع أو توجيه المخاطَب

قدَّم النَّظمُ الكريمُ ذكرَ ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ على ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ مع شهرة النَّصارى ومعرفتهم لدى جميع المخاطبين، بخلاف (الصابئين)؛ فإنَّ الَّذين يعرفونهم أقلُّ عند نزول الآيات، وذلك إمّا للفتِ الأنظار إليهم، وتوجيهِ العناية لهم، وإمّا كما قيل باعتبار تقدُّمهم عن النصارى في الزمان والوجود[1]، فالتقدُّم إمّا للشُّهرة وإمّا للسَّبق الزَّماني وإما لغيرهما، والملحوظ هنا الثاني.

نكتةُ التَّعبير عن المشركين بالاسم الموصول:

إبراز الذَّمِّ لمَنْ أشركَ وتحقيرُ مَن كذَّب

يُلحظ كذلك أنَّه عند التَّعبير عن (المشركين) آثر النَّظم استعمالَ الاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مجددًا؛ وذلك لذمِّهم وتحقيرهم بسبب شركهم، وللتَّنصيص على علَّة هذا الذم وهو سوءُ معتقدهم حين أشركوا به سبحانه، وفائدة هذا التنوع في التعبير عن الفِرَق المختلفة بالموصول وصلته تارةً وبالاسم الظاهر أخرى، والرجوع مجددًا إلى الموصول بيانُ أنَّ مَن عبَّر عنهم بطريق الموصولية ليس وصفًا خاصًّا بفرقة من الفرق، إذِ أوصاف (المؤمنين واليهود والمشركين) قد تطلقُ ويرادُ بها كلُّ مَن آمن أو رجعَ أوْ أشرك، وهذه الأوصاف مبثوثةٌ في الفرق كلِّها، في حين أنَّ المراد بيانُ أسماء تلك الفرق، فتمَّ العدول عن الظاهر فيها إلى الموصول للدلالة على أنَّها تسمياتٌ مختصّةٌ بفرقةٍ معينة دون غيرها، في حين لا يتحقّقُ هذا الفهم مع الصابئين والنصارى والمجوس، ولذا عبَّر عنهم بألقابهم المختصة؛ لأنها معانٍ محصورةٌ فيهم لا تنبثُّ ولا تسري في غيرهم.

فائدة ذكر مادة الشرك دون الكفر:

تعيينُ المقصود بالخطاب ودفعُ ما قد يلتبس

يُلاحظ أنَّ الآية ذكرت صفة الشِّرك دون الكفر، فلم يقل: (والذين كفروا)، والكفر أعمُّ من الشِّرك، فكلُّ مشركٍ كافرٌ دون

(1) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 75.

العكس، فيُسأل عن سرِّ ذكر الشرك دون الكفر في هذا السّياق؟ والذي يبدو أنَّ اختيار لفظ (الشِّرك) هنا معتبرٌ فيه المخاطبون أوَّلًا، وهم قومُه ﷺ، فهم قومٌ مشركون كانوا يعبدون الأصنام تقرُّبًا وزلفى إلى الله تعالى، وهذا اعتبارٌ مقاميٌّ خاصّ، وهو المقصود بقرينة ذكر الفِرَق الأخرى؛ فلمّا كان السياق قد ذكر طائفةً من أصنافِ الكفّار والمشركين ناسبَ أنْ يذكر العرب بما اشتُهروا به من الشرك الاعتقادي والعباديّ، وإلّا لظُنَّ أنَّ المقصودَ هم عمومُ الكفّار، فيكون من باب عطف العامِّ على الخاصِّ، وهو غير مراد.

بلاغةُ التَّرتيبِ في تعداد أهل الملل:

الترتيبُ ملحوظٌ فيه اعتباراتٌ زمانيَّة ومعنويَّة

جاء ترتيبُ الملل والفرق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ لغرض بلاغيّ مقصود، فقدِّم ذكر (المؤمنين) المقصود بهم ملّةُ الإسلام المتابعون للنبيِّ ﷺ لشرفِهم ومكانتهم، فهم أهل الإيمان الحقِّ، فحُقَّ لهم أن يُقدَّموا على مَن سواهم، ثمَّ ثنَّى بذكر (اليهود)، وذلك بالنّظر إلى أصل الاعتقاد في الله[1]، وأمّا تقديم ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ على ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾؛ فلسبقهم الزَّماني عليهم، وذكرُ (المجوس) كالتَّتميم لأشهرِ الفرق المعروفة لدى العرب، ثمَّ ذكرَ (المشركين) باعتبارِهم المخاطَبين أصالةً، فيكونُ هناك مراعاةٌ لأكثرَ من مناسبةٍ بلاغيَّة اقتضتِ التقديم والتأخير.

توجيه المتشابهِ اللَّفظيِّ في التَّقديم بين النَّصارى والصّابئين:

تقديمُ إحدى الفرقتين على الأخرى لاعتباراتٍ متعدِّدة

ذُكِر (الصّابئون والنّصارى) ضمن بقيَّة الفرق المذكورة في ثلاثة مواضعَ في القرآن، وهي ما جاء في سورة البقرة، في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ [البقرة: 62]، وفي المائدة في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: 69]، وفي سورة الحج ﴿إِنَّ

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 101.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾؛ فقدَّم في آية البقرة (النّصارى) على (الصّابئين)؛ لِأنَّ النَّصارَى مقدَّمون على الصّابئين في الرُّتْبَة؛ لأنَّهم أهلُ كتاب، وفي آية الحج قدَّم (الصّابئين) على (النَّصارى) باعتبار الزمان، فالصّابئون مقدَّمون على النَّصارَى في الزَّمان؛ لأنَّهم كانوا قبلَهم، وأما في آية المائدة فقد راعى المعنيين جميعًا، فقدم ذكر الصابئين في اللَّفْظ وأخَّرهم في التَّقْدير[1].

سرُّ تصدير جملة الابتداء وجملة الخبر بأداةِ ﴿إِنَّ﴾:

زيـادةُ التَّأكيد وطـولُ الفصلِ بينَ المبتدأ والخبر

صُدِّرت جملة الابتداء من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾، وجملة الخبر من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ بأداة ﴿إِنَّ﴾؛ لزيادة التوكيد[2]، أي: في الوعد والوعيد[3]، فقد أُكِّد الخبرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾؛ لتأنيسِ المؤمنين وترهيبِ الكافرين؛ لأنَّ الَّذي يفصلُ بينهم جميعًا بحُكمِه الفصل، ويميّزُ صالحَها وطالحَها، هو الله سبحانه لا غير، وقيل: الَّذي حسَّن دخول ﴿إِنَّ﴾ على الجملة الواقعةِ خبرًا طولُ الفصل بين جملتي المبتدأ والخبر بالمعطوفات[4]، ونلمح في إعادة التوكيد تقريرًا للجوابِ عن السُّؤال المتقدِّم الَّذي أثارته الآية السابقة مِن أنَّ الله تعالى يهدي مَن يريد، فإنْ كانت هدايتُهُ منوطةً بإرادته فمَن يتولَّى الفصل بين المهديّين وغيرهم، فجاءَ الجوابُ مؤكَّدًا بالأداتين لينفيَ كلَّ شكٍّ وريبٍ في نسبة ذلك الخبر للمبتدأ، فعلى المؤمنين ألّا يَنشغلوا بمحاسبتهم على كفرهم، بل جلُّ وظيفتهم ممارسةُ الدّعوةِ قولًا وفعلًا، وتركُ الحساب والجزاء لمَن بيده هدايتُهم وإضلالُهم.

(1) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 75.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 148.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 30.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 494.

نكتةُ الإخبارِ بالجملة الاسميَّة:

اختصاصُ الله تعالى بالحساب توجيهٌ ربانيٌّ للدعاة

جاء الإخبارُ عن الله تعالى بأنَّه هو الَّذي يفصلُ بين النّاس يومَ القيامة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾ بالجملةِ الاسميَّة؛ لبيانِ ثباتِ هذا الحُكم، وأنَّه لله تعالى دونَ سواه، ويفهمُ من هذا الثبوت والاختصاص رفعُ مسؤولية الحساب والجزاء عن الدّعاة من المؤمنين، والانشغال بأمور التوجيه والإصلاح قولًا وعملًا.

نكتة تعدد المسند إليه:

بيان مناط الحكم ومقصد الخطاب

لقد تعدَّدَ المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾؛ فقد كان المسندُ إليه في أوّلِ الآية مدخولَ ﴿إِنَّ﴾ من الفِرق والمِلل المختلفة، وعندما جاء الخبرُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾ وردَ بهيئةِ الجملة الاسميَّة؛ ليكون المسند إليه لفظَ الجلالة، لبيان أنَّ مناطَ الحكم أنَّ الله يفصلُ بين الجميع مِللًا وأفرادًا، شعوبًا وقبائلَ وجماعات، ومِن ثمَّ أعيدَ الكلام بهيئةٍ تشبهُ ابتداءَ الكلام إشارةً إلى أنَّه المقصودُ والمُبتغى.

فائدةُ تقديم المسند إليه:

التقديمُ للتعظيم وكونه الأصلَ وإفادةِ القصر

قُدِّم المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾ على المسند، وهو الخبر الفعليُّ، تعظيمًا له سبحانه، ولأنَّه الأصلُ الَّذي اختصَّ وحدَه بالحكم الفصل، الَّذي يملكُه ويقدرُ عليه وحدَه دون سواه، ولإفادة القصر، وللتَّشويق للخبر[1]؛ فإنَّ السّامع عندما يسمع قول الحقِّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ يتشوَّقُ لما بعدَه، فينزل الخبر متينًا عنده.

سرُّ التعبير بلفظ الجلالةِ:

آثر النَّظمُ استعمالَ الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ لما أنَّ المقامَ مقامُ إجلالٍ وتهيّب، وهو مقامُ الفصْلِ بين الفِرَقِ، ومُجازاتِها على

(1) التفتازاني، المختصر شرح تلخيص المفتاح: 214 - 217.

ما تستحقُّه، ولذلك سُمّي يوم القيامة (يومَ الفصل)، وفيه قال سبحانه حكايةً عن مقاولتهم: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾ [الصافات: 20 - 21] وقال تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ [المرسلات: 12 - 15]، كما أنَّ تعليق الحكم - وهو (الفصل بين الخلائق) - بالاسم الدالِّ على جميع الصفات الحسنى تأشيرٌ للعلّة، فيكون كدعوى الشيءِ ببيّنة وبُرهان.

مقامُ الحُكمِ بين العبادِ يُناسِبه بناءُ المهابةِ والجلال

دلالةُ اختيارِ مفردةِ الفَصْل دون مرادفاتها:

الحكمُ والقضاء كلاهما من الفَصْل، سواءٌ في ذلك الفصلُ المعنويّ بين الناس بأخذ حقوق بعضِهم لبعض إذا سلبوهم إيّاها، أم الفصلُ الحسيّ بمعنى التمايز بينهم؛ بأنْ يكونَ كلُّ فريق في جانب مفصولًا عن الآخر، فلفظ (الفصل) يشملُ الحُكمَ والقضاء؛ فهو دالٌّ على العموم؛ ولازمٌ للحكم والقضاء؛ إذ ينجمُ عن الحكم بين المتخاصمين والقضاء بينهما فصلُ المُحقّ من المبطل، وتمييز الصّادقِ من الكاذب في الدَّعوى، كما أنَّ لفظَ (الفصل) يدلُّ على تمييز الفرق بعضِها عن بعض، والفصلِ بينها فصلًا تامًّا؛ فالفصلُ هو: إبانة أحدِ الشّيئين من الآخر: حتى يكونَ بينهما فُرجة[1]، والمعنى أنّه سبحانه يقضي بين الخلائق، فيُدخلُ المؤمنين منهم الجنّةَ والكافرينَ منهم النّارَ، وقيل: الفصلُ هو أنْ يُميِّز المُحقَّ من المُبطل بعلامةٍ يُعرَف بها كلُّ واحدٍ منهما[2]، وعليه فالتَّعبير به هو الأنسب بالمقام الَّذي ذُكرت فيه الفِرَقُ والملل متداخلة مترابطة على التفصيل، وهو آكدُ وأنسبُ وأليقُ من التَّعبير بالحُكم لأنَّه من لوازمه، فلفظُ الحُكم لا يوحي بالمجانبة والمباعدة بين الفِرَق، ولا ننسى أنّه

مفردةُ الفصلِ أعمُّ من رديفاتِها وتوحي بالمباعدةِ بين الفرق

(1) الراغب، المفردات: (فصل).
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 524.

أنسبُ بالسّؤال المقدَّر الَّذي أثارته الآيةُ السّابقة من أنَّ اللّه تعالى يهدي إليه مَن يريد بشكلٍ مُبهم؛ فيتولد سؤالٌ عمَّن يفصلُ بين المهديِّ وغيره؟ ومن ثمَّ حسُن التعبير به دونَ الحُكمِ والقضاء.

بلاغةُ مجيءِ المسند فعلًا مضارعًا ﴿يَفْصِلُ﴾:

غايةُ النَّظم زرعُ القيمِ المؤثِّرة في سلوك النّاسِ

عبَّر النَّظمُ بصيغة المضارع ﴿يَفْصِلُ﴾؛ لتصويرِ الفصلِ الكائن بينَ العباد يومَ القيامة، وللإشارةِ إلى مقدِّمات الفصلِ بينهم، وأنَّه قد ابتدأ في الدُّنيا بتسجيلِ أعمال العباد في صحائفِهم، فهو تصويرٌ للمستقبلِ لما يتركُهُ من تهويلٍ في نفس المتلقّي بما يَستحضرُه من مواقف القيامةِ، وإيماءٌ إلى مقدِّمات الفصل بتسجيلِ الأعمال في صحائفِ العباد، فهو كذلك ترهيبٌ وتخويفٌ؛ لردعهم عن الشَّرِّ وحثِّهم على الخير، والمضارعُ يدلُّ على تجدُّد الفصل واستمراره وعدمِ انقطاعه، وأنَّ هذا الفصل يتجدّدُ بتعدُّد الفرق المفصولةِ عن بعضها، وتنوّع الجماعات والملل، ممّا يرسمُ في الذهن صورةً حيّةً لما يقع في عرصات الحساب من تمايز المهديّين من غيرهم، كما يدلُّ المضارع على المستقبل المحدّد بيوم القيامة؛ للدلالة على أهمية أن يعيشَ أهلُ الإيمان في الحياة وهم يتطلَّعون ليوم الفصل، ليكونوا مع المهديين دون الضالين، فيثبتوا على إيمانهم، وأنْ ينتبهَ الضالّون عن الصّراط المستقيم فيرتدعوا عن غَوايتهم وجُحودهم بالحقِّ والحقيقة.

بلاغةُ إضافة الظَّرف إلى الضّمير ﴿بَيْنَهُمْ﴾:

تآلف المعاني اللفظيَّة والإضافيَّة دليلُ قوَّة الاتِّساق

من فوائد التعبير بالضمائر الاختصارُ والرّبطُ، فالضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يقوم مقامَ إعادة كلِّ الفرق المذكورة في الآية، وإضافةُ الظَّرف إلى الضَّمير جاء وفقَ الأصل، ونكتتُه البيانيَّة إيقاعُ دلالة فعلِ الفصل بينَ تلك الفرق، أي: إنَّ الفصل سيكون بينهم، كلُّ فرقة تكون منفصلةً عن الأخريات، وبه يتأكَّد معنى مفردة (الفصل) المذكور في السّياقِ، ونلمحُ في تعدية الفعل إلى الظرف ﴿بَيْنَهُمْ﴾

دون القول (يفصلهم) إشارةً إلى أنَّ الفصل يكونُ في أدقِّ الأمور الواقعة فيما بينهم، وليس مجرّد فصلِ الذوات المؤمنةِ عن الذوات غير المؤمنة، يتبيّن هذا من تأمُّلِ الفرق بين (فصلتُ الشيئين) الدالِّ على أنّهما ملتصقان ممتزجان، و(فصلتُ بين الشيئين) الدالّ على أنّهما متمايزان لكن بينهما أمورٌ مُشتبهة؛ إذ تشخيصُ البينيَّة يدلُّ على أنَّ الفصل بين تلك الأمور المتشابهة كان بدقّةٍ عاليةٍ تُتابعُ ألطفَ الأشياء وأصغرَها الَّتي وقع فيها التباين بينها.

نكتةُ ذكر زمان الفصل:

تـأنـيـسُ أهـلِ الـحـقِّ وتـهـديدُ أهلِ الباطلِ

نَصَّتِ الآيةُ على تحديد زمن الفصل بينهم - وهو ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ - دون أن يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾ بحذف الظَّرف، وذلك لما في ذكره من تأنيسِ أهل الحقّ، وتهديد الخاطئين المخالفينَ بإخبارهم بأنَّ الفصلَ الحقَّ آتٍ لا محالةَ يومَ القيامة، وأنَّ إمهال الدنيا لا يعني إهمالَ أهلِ الباطل، فيومُ القيامة آتٍ للفصل والجزاء، كما أفاد تحديد يومِ الفصل؛ ليُعلَمَ أنَّ ذلك الفصلَ بالنسبة للمؤمنين، وأما وقوع الفصل والعلم به فمنكشف لمولانا تعالى أزلًا وأبدًا.

دلالةُ تقديم ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ على ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾:

الـتَّـهـديـدُ مهمازٌ لمراجعة المسارِ وتقويم الاعوجاجِ

قدّم الظرفَ المكانيَّ المضافَ إلى الضَّمير ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ على الظرف الزمانيّ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾؛ اهتمامًا بأمر (الفصل) الكائن بين المختلفين في الدّين، وسيقَ بما يشي بالاختصاص الناتج عن تقديم الظرف كذلك، مع أنَّ الفصل في هذا اليوم عامٌّ وليس مختصًّا بهم؛ للإشعارِ بأنَّ مسألة الفصلِ لها من الأهميَّة البالغةِ ما يجعلُها تبدو كأنَّها وحدَها هي المخصوصةُ به، وكأنَّ يومَ الفصل لم يكنْ إلا لها، وفي ذلك ما يدعو كلَّ الفِرَق إلى مراجعةِ نفسِها؛ لتصحيحِ مسارِها وتقويمِ اعوجاجِها قبل أن يأتيَ يومُ الفصل.

نكتةُ ذكر وصف ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ دونَ مرادفاته:

القيامة أعمُّ الأسماءِ وأهولُ الألفاظ

آثر النَّظم الكريم استعمالَ اسم ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ دون بقيَّة الأسماء، لا سيَّما نعتُ الفصل، وغيره من الحساب والجزاء والدّين، وذلك لما في التَّعبير بـ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ من تهويلِ أمرِها، وبثِّ الرهبة في قلوب الخاطئين، ويومُ القيامة عظيمُ الأهوال، متعدّدُ المواقف، وما الحسابُ إلا واحدٌ من مواقفه، وعليه فالتعبير بـ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ لتعدُّد أهواله، أنفذُ في إيقاع الرّهبة في القلوب من غيره، ولشمولِ القيامة وعمومِه، فهو يشملُ الحسابَ، والفصلَ، والحُكمَ، والجزاءَ، كما أنّ اسم ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ يشعر بالقيام من عالم الأموات والرجوع إلى الحياة للحساب والجزاء، فكانت تسميةُ اليوم بذلك دلالةً على أهميَّةِ الفصلِ بينَ الخلائق، حتى إنَّهم يُبعثون مُجدَّدًا للفصلِ بينَ المهديِّ، فيتنعّم وغيره فيتعذَّب.

علَّة فصل جملة الفاصلة:

الفصل إمّا للاستئناف البياني أو الابتدائي

فُصلتِ الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ عن السّابق؛ إما لأنَّها جوابٌ عن سؤال: لماذا اختصّ الفصلُ بينهم بالله يومَ القيامة؟ فكان الجواب؛ لأنَّه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ أي: ومُجازٍ كلًّا بما يَستحقُّه؛ لكونه شهيدًا على جميعِهم، وإمّا لأنَّها مُستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ للإعلامِ بإحاطةِ علْم الله بأحوالِهم واختلافِهم، والصَّحيحِ من أقوالهم[1]، والأوّلُ أرجحُ؛ لشدَّة الارتباط بين اختصاصه تعالى بالفصل، واختصاصِه بالشَّهادة على كلِّ ما يصدر عنهم من أقوال وآراء، الَّتي يبرزها السّؤالُ وجوابُه.

سببُ توكيد جملة الفاصلة:

أُكِّد قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ واسمية

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 225.

الجملة؛ لإعلام جميع الفرق إعلامًا مؤكّدًا بأنَّ الله تعالى علمَه محيطٌ بهم وبأقوالهم وأفعالهم ومعتقداتهم، ثمَّ هو مُجازيهم على هذا كلِّه بما يَستحقّون عدلًا وإنصافًا، وذلك لدفع خَلَجات النُّفوس، وشبهات العقول؛ فإنَّ النَّفسَ إذا استقرَّ فيها معتقدٌ باطلٌ رفضتْ ما سواه، فشأنُ التَّوكيدِ زحزحةُ الفاسد، وإراقةُ دمِ الباطل، وبذلك يتناسبُ هذا التوكيد مع التوكيد السّابق لاختصاصِ الفصل والقضاء والحُكم بالله، ويفيدُ تعليلُ ذلك المؤكَّد بمؤكَّد آخر، وهو كونُ الله شهيدًا على ما يقولون عالمًا بما يفعلون.

التوكيد يُزحزح الفاسدَ ويُشكِّك بالباطل

نكتةُ إظهار ما حقُّه الإضمار:

أُظهر اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ فيما شأنه الإضمار، فمقتضى الظّاهر: (إنَّه على كل شيء شهيد)؛ ونكتة ذلك التَّفخيم، وإظهار المهابة، مع الإشارَة إلَى علَّة الحكم[1]، وفي تفخيم المولى لذاته الجليلة تفخيمٌ للمشهود به وللشَّهادة، إذ بهما يتميّز المهديّون من الضالّين.

تفخيم الشهيد تفخيم للمشهود عليه

بلاغةُ استعمال حرف الاستعلاء:

استعملَ النَّظم حرفَ الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ للدّلالة على التمكُّن؛ إذ لا شيءَ يخرجُ عن قيّوميته سبحانه وعلمِه، فهو قيّوم شهيدٌ على كلِّ شيء صغُر أوْ كبُر، فالتعديةُ بحرف ﴿عَلَىٰ﴾ دون (الباء) مشيرةٌ إلى معنى الرّقابة، والإحاطة بهم، فهو بكلِّ شيءٍ محيط؛ لأنَّ كلَّ شيء خاضعٌ له سبحانه[2]، والفرقُ بين (شهد به) و(شهد عليه) أنَّ الأوّلَ يدلُّ على أنَّه يتكلَّم بالمشهود به ويُدلي بالشهادةِ أمامَ الآخرين، ويدلُّ الثاني على أنَّ المتكلِّم غيرُه، وهو يشهدُ على كلامه بأنه الحقُّ أوِ الباطلُ، فكلُّ فرقة تدّعي أنَّ الحقَّ معها، فهو يشهدُ عليها بما يوافقُها أوْ يخالفُها، ولذا تعدَّى بـ(على) في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ

علمُ الله محيطٌ بكلِّ الأعمال إحاطةَ المتمكِّن

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 30.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4959.

عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ﴾ [فصلت: 20] الآية؛ لأنهم يتكلَّمون فيقومُ السّمع والبصر والجلود بتصديق ذلك أوْ تكذيبِه.

نكتةُ استعمال لفظ العموم ﴿كُلِّ﴾:

لا يـخـرجُ عن علمه سبحانه شيءٌ ولا يفلتُ من حُكمه أحدٌ

استُعمل لفظ العموم ﴿كُلِّ﴾؛ لوقوع قيوميَّته سبحانه على كلِّ ما في الكون، أي: كل ما يسمَّى شيئًا فهو خاضعٌ لشهادته عليه، ولذا أضافَ إليه كلمة ﴿شَيۡءٍ﴾ الدالة على عموم الموجودات، على معنى: أنَّه سبحانه "عالمٌ بِكُلّ شَيْء من الأشياء ومراقبٌ لأحواله، ومن قضيَّتِه الإحاطةُ بتفاصيل ما صدرَ عن كلِّ فردٍ من أفراد الفرق المذكورة، وإجراءُ جزائه اللّائق به عليه"[1]، فهو تعالى لا يشهد على الأمور الكلية فحسب، بل شهادتُه تستغرق جميعَ التفاصيل والأقوال الجزئية الَّتي صدرتْ منهم أوْ فعلوها.

فائدةُ استعمال لفظِ ﴿شَيۡءٍ﴾ دون (أمّة):

استغراق الأفراد والجماعات على حدٍّ سواء

مقتضى ظاهر السّياق والمعنى أن يكون التعبير بلفظ (أمَّة) أو (جماعة)، ونحو ذلك، لكنَّ النَّظم آثر استعمال لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾؛ لأنَّه أعمُّ وأشملُ من غيره، فهو سبحانه ليس شهيدًا على الأمم فحسب، بل على كلِّ موجود ممّا يصحُّ أن يُعلَم ويُخبَر عنه[2]، وفيه إيذانٌ بأنَّه لا يفوتُه حسابُ أحدٍ من النّاسِ، فكان التَّعبير بـ﴿شَيۡءٍ﴾ مُستغرقًا للجماعات والأفراد على حدٍّ سواء.

غرض تقديم الجار والمجرور على المسند:

قـصـرُ صفة الـشـهـادةِ الحقيقيَّة على الله تعالى

قُدِّم الجارُّ والمجرور على المسند ﴿شَهِيدٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾؛ فلم يقل: (إنَّ اللّه شهيدٌ على كلِّ شيءٍ)؛ لإفادة الاختصاص والحصر، فليس أحدٌ على كلِّ شيء شهيدًا إلا اللّه تعالى، وهو من قصْر الصِّفة على الموصوف، كما أنَّ فيه مراعاةً للجانب الصَّوتي في الفواصل.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 100.
(2) الراغب، المفردات: (شيء).

بلاغة اختيار وصف ﴿شَهِيدٌ﴾ دون رقيب:

لمّا أظهرتِ الفرق معتقداتها ناسب ذلك لفظُ الشَّهيد

آثر النَّظمُ استعمال مفردة (الشهيد) دون (الرّقيب)، إذ الشَّهيد يعلمُ كلَّ ما ظهر من الأعمال علمًا مشاهدًا، فيدلي بالشهادة في وقتها المحدَّد، والرَّقيب يعلم كلَّ ما خفي من الأعمال الباطنة والظّاهرة من باب أوْلى، لكنه لا يدلي بشهادة بل يكتفي بالمراقبة، ولمّا كانت هذه الفرقُ المذكورة لا تُخفي معتقداتِها ولا أعمالَها، وتدَّعي أنَّها على الحقِّ البيّن، ناسب التَّعبيرُ بـ(الشهيد) دون الرقيب؛ لما في الشهادة من إخبارٍ بصدق المدِّعي وكذبِه، بخلاف المراقب الَّذي يعلم من دون أن يشهد بشيء، فبينهما تقاربٌ دلاليٌّ أصلُه العلمُ والإحاطة، ويشير إلى هذا التقارب قولُه تعالى حكايةً لقول المسيح عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: 117].

نكتةُ استعمال صيغة فعيل:

جاءت مفردة ﴿شَهِيدٌ﴾ بصيغة (فعيل)، وهي تحتمل أن تكون صيغةَ مبالغة أوْ صفةً مشبَّهة، وكونها صفةً مشبّهة أدقُّ لثبات هذه الصِّفة فيه سبحانه، فهو شهيدٌ دائمًا على كلِّ شيء.

بلاغةُ التَّذييل:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تذييلٌ لما قبله، مقرِّرٌ لمضمونه، وتعليلٌ له[1]، فهو شاملٌ لكلِّ ما تقدَّم ذكره بنوعِ توجيهٍ للمعاني، فهو سبحانه يفصل بينهم يوم القيامة بحكمه الفصل العدل؛ لأنه سبحانه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 30، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 124.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفصل والحكم:

الفصلُ لازم الحُكم، وهو يحملُ معنى المجانبة والمباعدة بين هذه الفِرَقِ المتجاذبة، بما يعني أنَّ الله تعالى سيفرِّق بينها بعد حُكمه وقضائه فيها الحُكمَ العادلَ والقضاءَ الحقَّ، ويُمايز بينها بوضوحٍ شديدٍ تبدو فيه كلُّ فِرقةٍ بعيدةً في جانب مفصولٍ عن الفرقة الأخرى.

الفصل أعمُّ من الحكم والحكم يُقال باعتبار النتيجة

كما أنَّ من مقتضيات الفصل بينهم إيقاعُ الجزاء عليهم، بما يفصلُ بعضهم عن بعض في دار الجزاء، وهو علّةُ تسمية يوم القيامة (يومَ الفصل)؛ ومن هنا يظهر أن التعبير بالفصل آكد وأنسب وأليق من التعبير بالحُكم؛ لأنَّ لفظ الحكم قد لا يفيد ما أفاده لفظُ الفصل من المجانبة والمباعدة بين الفِرَق.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»